ليلة عيد ميلادي

شفاء قرجة

هل أفرح أم أحزن، ابتسم أم أبكي؟ ففي هذه الليلة كنت أحضّر كعكة عيد ميلادي، وأشعل الشموع، حيث صادف هذا اليوم، الأول من أيلول، دخولي إلى الصف الأول الابتدائي. ففي هذه الليلة، أناس فرحون فرحة تطول، وأنا حزينة قاصية المدى باردة الفصول، أنظر إلى فراق أمي. في هذه الليلة كنت أعد فستان عيد ميلادي، وأنتظر الليل حتى يزول، وأحقق أمنياتي وبيان زماني المجهول، وكنت حزينة مشغولة أرقب النجوم، فكانت ليلة متعددة الفصول، فيها الندى والبرد المجنون، فيها أناس ينظرون إلى ما لم تنظر إليه الحياة، وأناس يودعون وأناس يستقبلون. ليلة طويلة المدى مليئة الندى غريبة العيون، يسود الظلام فيها ويرقص الخوف المجهول. ليلة غريبة الشكل، خيالها معقول، تكتنفها الأحاسيس الكئيبة، وتسكنها الدموع. بعضهم يفرح ويضحك وينشد الأناشيد ويشعل الشموع. ليلة فيها يذهبون ولا يعرفون الرجوع، فكانت بالفعل ليلة طويلة المدى. وفصل الشتاء حلّ، لأن الصيف من الناس مل! والهواء يراقص أوراق الشجر، حفيفه مخيف مثل الشرر، فأنا في تلك الليلة لا أنام؛ لا قلبي ولا عقلي فهو كثير الانشغال بالأفكار، فبقيت مستيقظةً حتى صاح الديك، فخرجت إلى يوم غريب رغم نوره، إلا أنه مظلم كئيب شديد البرودة وقلبي يرتجف.

وقفت على أعلى قمة في بلادي، فرأيت مبنى شاهقاً ينادي، فتأملت في بنائه القديم الذي تسكنه العراقة والثقافة والتاريخ، فإذا به حجارة من رخام، وساحات من أقلام مضيئة، وأشجار من اللؤلؤ على حبة الرمان، منتصباً يبحث عن الأجيال: أين أنتم يا أحباب قلبي؟ فأنا مشتاق إليكم، مشتاق إلى الأجيال التي غمرتني، ومشتاق إلى رياح تأخذ بيد هذه الأجيال إلى مستقبل زاهر ينتظرهم بكل شجون، وإذا بشخصية كالفراشة تلوح بشعرها الشلال، تلمع بعينيها البراقتين، تسطع بوجهها الأبيض، ترتدي كنزة سوداء وبنطالاً أزرق وقبعة صفراء تتراقص مع الشمس، وحاجباها مائلان، ويداها ناعمتان كقطعتي حرير، كلامها نواعم، يخرج من فمها كمقطوعة موسيقى ساحرة، وتنتشر بسحرها، فهل من وصف لها أكثر من ذلك؟! بدأت أحس بالأمن والأمان في بيتي الثاني، فكانت مرحلة ابتدائية مفعمة بالأمل والنجاح والحيوية، وتأهلت إلى مدرسة ومرحلة جديدة في الإعدادية، فبدأت أحس بالمسؤولية، وكنت أنظر إلى البعيد، فأرى قطيعاً من الأغنام متحداً كسلسة الكلام، والناس متناثرون كالأحلام.

في المرحلة الثانوية، كنت أكره معلمة اللغة الإنجليزية، لأنها كانت قاسية وجادة في عملها، ولكني الآن مدينة لها بالشكر الجزيل، لأنها تركت أثراً في نفسي، وأنا أتبع أسلوبها الآن في عملي.

خلال مرحلتي الإعدادية، تقدم لي عريس، وكنت على وشك الانهيار، والأيام عليَّ عتبت، وروحي من أعالي الجبال هوت، وذكرياتي معها ذهبت، وكنت أسمع صوت حثيث الشجر يتراقص مع الهواء، وأرى الغيوم تمشي في وسط السماء كجنين في بطن أمه، ورفضت رغم البكاء، وطارد عقلي كثير من الأوهام، وأصابه الزحام، فلا تصارعني أيها القرار لأني ضجرت، لا وألف لا، ألقي بسهمك على غيري، ترجل وجد غيري، ففي شفق الغروب وضحكة الأشجار في علم مسلوب، نهض الانتصار بين رفض وقوة وانصهار، حُررت أيتها الوردة البيضاء، وحققت الآمال، وسقيت ماء الحرية بالعلم، وتلحفت بشمس الانتصار، ودارت الأناشيد بين صديقاتي، وصوت ضحكاتي وصل ما لم يصله الرائد المغوار، تاهت الأمم بحريتي عجباً، ولأني شيدت ألف دار ودار، وعانقت العلم والحرية، ها أنا وها هو علمي، هزمت به المحيا والانتصار، عاشت المرأة حرة دائمة الانتصار، هذا ما تعلمناه من صمت الكلام، فقد جعلنا الآلامَ قوةً تدفعنا للأمام، فلا وجود للخوف، إنما هو وهم بأيدينا صنعناه، فأنا فتاة عزفت لحن الحياة، وسأعلمه لكل صبية وفتاة، فما عادت حياة الخوف والجبن بعد الآن حياة، فاحفر في قلبك الأسرار والتحدي، وسنصل بعدها إلى نهاية المطاف، فالاختفاء بين صفحات التاريخ ليس حلاً، وأن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام.

بعد سنوات الطفولة، خرجت إلى حياة مليئة بالأمل، وتأملت هذه الطبيعة، ورغم الجمال الذي يراودها، فإن الخوف كان يسود، والظلام من حولي، ولا أعلم لماذا هذا الغبار المتطاير والأجواء الملوثة، إلا أنه علي أن أعيش في جو نقي، وأنا من أملك زمام الأمر، وأن مصيري بيدي، فهذا أمر يخصني أنا وحدي، لذلك لا بد من السعي إلى تحقيق هدفي، وما أرسمه في خيالي من أحلام، ولا بد لليل أن يزول ويذهب، ويأتي بعده نهار جديد مفعم بالإرادة والقوة والأمل مستعد للبذل والعطاء، فبدأت بالخطوة، وسجلت في الكلية، وكنت أطمح في تخصص الفنون التشكيلية، ولكن لم يحالفني الحظ، فدخلت إلى قسم التربية الموسيقية، ولكن واجهت العديد من الكلام عن هذا التخصص الغريب، فكانت الناس تعتبره رقصاً فقط، لا يعرفون أنه علم وفن ولغة وعلاج، وبالفعل هذه الأقاويل ولدت لدي الإصرار على الإكمال في تخصصي حتى أنهيته، وكانت أيام تمر كلمح البصر، ومن ثم نقلت إلى حياة جديدة، وهي حياة العمل في مديرية التربية والتعليم؛ معلمة للتربية الفنية، كنت أحلم لدراستها، وكنت أمارس تخصصي كنشاط للمدرسة في الاستراحة، فكنت ألاحظ أن عمري لا يختلف كثيراً عن عمر طالباتي اللواتي كنت أدرسهن، فكنت قريبة جداً منهن، وهذا زاد من حبي للعمل، كنت أعمل ضمن برنامج النشاطات المدرسية؛ أي خارج الروتين اليومي.

تخرجت وعملت مباشرة، واستطعت أن أكتسب ثقة الطالبات، وكان عمري لا يزيد على أعمارهن إلا بسنوات قليلة، كنت أستمع لبعض المشكلات التي تواجههن، وكنت على مقدرة لحل هذه المشاكل، وكن ينتظرن اليوم التالي للعودة إلى المقاعد الدراسية بلهفة وشوق. كان سبب ذلك الابتعاد عن أسلوب التلقين، والخروج عن الروتين في النشاط المدرسي، فوظفت المسرح والغناء والمعارض الفنية، كما أوكلت دوراً مهماً لكل طالبة للاشتراك في هذه النشاطات، وأشعرت جميعهن بأنهن قائدات، وكل منهن لها دور فعال ومهم مهما صغر حجمه. ومن خلال ذلك تمكنت من فحص شخصيتي كمعلمة على طالباتي، عبر الاجتماع معهن وامتحانهن، وإعداد خطة سنوية من أجل تحديد المواهب في الغناء أو العزف أو الإيقاع، ومن ثم إعداد برنامج ضمن الجدول المدرسي، وبخاصة حصة التربية الفنية، فشكلت مجموعة من الطالبات العاديات مع معلم التربية الفنية، وأخرى من الموهوبات مع معلمة الموسيقى.

والمواهب موجودة في كل مدرسة، وفي جميع المراحل، ولكنها تحتاج إلى من يصقلها. وقد أصبحت الموسيقى عنصراً مهماً في صقل هذه الشخصية، وعلاجاً عضوياً ونفسياً للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة، ووسيلة لكسر الروتين، ما ولّد إصراراً لدى بعض الطالبات لإكمال دراستهن في مجال علم الموسيقى، وذلك لشدة تعلقهن بها.

واجهنا العديد من المشاكل في حصة الموسيقى، ولكننا استطعنا أن نتخطاها، وهيأت أنا وطالباتي جواً مفعماً بالأمل والحب في المدرسة. من الممتع أن نشاهد طالبة في الصف الثالث تعزف السلام الوطني في الطابور الصباحي، وتقود الطالبات غناءً وعزفاً. لكن، لم يخلُ الجو من بعض الأمور السلبية عندما ندرب الطالبات، كعدم رغبة الأهل في إكمال ابنتهم هذا النشاط، مع العلم أنه يتم توزيع أوراق موافقة قبل البدء فيه.

بدأت بتدريب الطالبات على الغناء والعزف، وأصبحن يقدن الفرق والطابور الصباحي من عزف السلام الوطني والأغاني الفيروزية وحدهن، وأصبحت أعتمد على الطالبات في تدريب بعضهن، وأنا مستمرة في هذا النهج لأنه حقق نتائج إيجابية. ومن هذه النتائج أن الموسيقى عملت على علاج مشكلة لدى طالبة في الصف الرابع، كانت تعاني من شد في الوتر في يدها اليمنى، وكانت خضعت لأنواع مختلفة من العلاج لكنها لم تستفد منها، وبفعل التمارين والسلالم الموسيقية، أصبحت تستخدم يدها بشكل طبيعي مثل باقي زميلاتها.

أيضاً وظفت الموسيقى في عملية دمج الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة والتحصيل المتدني مع الطلبة المتفوقين في عمل جماعي واحد، إذ أن الموهبة ليس عليها شرط، وليس لها حدود، لأنها هبة من الله.

مدرسة بنات زهرة المدائن الأساسية
مدرسة بنات اليرموك الأساسية

جانب من مشاركة المعلمة شفاء قرجة في مشروع «بلدات وحكايات».